نظرية ابن رشيق القيرواني في الشعر، وظاهرة التكسب بالشعر
(رؤية مقترحة في مجال الأدب والنقد)

د. أنيماشاون، معروف سراقة، وأ. د. صلاح الدين محمد شمس الدين الندوي الأزهري، قسم اللغة العربية ولغات الشرق الأوسط، كلية اللغات واللسانيات، جامعة مالايا بماليزيا.

ملخص البحث

لقد مرّ التأليف النقدي بمراحل متعددة، بدأت بعلماء النشأة الأولى الذين ظهر فكرهم النقدي مرتبطا بدراسات الأشعار العربية، من أمثال ابن سلام الجمحي في طبقات فحول الشعراء، وقدامة ابن جعفر في كتابه "نقد الشعر". ثم تطور التأليف على يد من نسمِّيهم علماء الدراسات المنهجية كعبد الله بن المعتز في كتابه "البديع" إلى أن ازدهر التأليف البلاغي على يد عبد القاهر الجرجاني. ثم تطور التأليف النقد الأدبي إلى عهد ابن رشيق القيرواني. وهذا البحث محاولة جادة لإظهار دور ابن رشيق الكبير في التأصيل للنقد الأدبي وارتباط الشعر عنده (و خاصة نظرية الشعر عنده). تلك النظرية التي تبلورت من خلال أعظم كتابين له وهما " العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه" و "قراضة الذهب في نقد أشعار العرب" . وسنرى من خلال هذا البحث كيف سرت روح نظرية الشعر في كتابه العمدة في محاسن الشعر و نقده وآدابه. وترجع أهمية هذا البحث إلى كونه يلقي الضوء على مفهوم جديد للشعر العربي، غير مفهوم الصِّرفة ومفهوم التكسب بالشعر بسبب إخباره الأدبية. ويهدف هذا البحث إلى إثراء المكتبة العربية بالبحوث الأدبية وإلى تقريب وتبسيط مفهوم نظرية الشعر العربي للمثقف العربي حيث إنها في أصولها تعتبر عصية على الفهم.

١- مقدمة: (الشعر من حيث الكلمة والاصطلاح)

يجتمع الباحثون على أن الشعر أقدم ما زاوله الإنسان من الفنون الأدبية، كما يرجع الكثيرون أن أصل الشعر من الغناء والإنشاد الشعبي، ومما يقوي هذا الرأي أن الكلمة التى تطلق على الشعر في أدب حضارة وادي الرافدين وهي كلمة "شيرو" البابلية و "سير" أو "شر" السومرية التى ظهرت في نظام الكتابة المسمارية منذ أول ظهور الكتابة تعنى في أصلها الغناء و الإنشاد والترنيم.[١]

وقد دارت حول الشعر – منذ أرسطو حتى اليوم- عشرات التعريفات يتسم بعضها بالأسلوب الفضفاض الذى لا يخرج منه الدارس بشئ يذكر عن جوهر الشعر وماهيته كقول نزار قبانى "الفن الشعري هو ذلك الساحر الذى يحاول النحاس إلى ذهب ويقلب التراب إلى ضوء"[٢]، كما تشير طائفة أخرى من هذه التعريفات إلى عناصر عديدة مختلفة كمصدر الشعر، ومكوناته، وهدفه، وعلاقاته ببعض القضايا الفلسفية، أو صلته بالفنون الأخرى كالموسيقي والرسم، إلخ. ولن نقف في هذا البحث عند أمثال هذه التعريفات، ولكننا سنلمّ بالتعريفات التى تحدد جوهر الشعر وماهيته، وهي تعريفات مختلفة ومتباينة، كما سنرى، وليس في هذا ما يثير الدهشة أو الاستغراب، فالشعر لا يعدّ- كالفن والأدب- من قبيل الحقائق السرمدية، بل إنه يقبل دائما تعريفات جديدة، فالطبقة المهيمنة في كل حقبة تاريخية لها تأثيرها المهم في تحديد الفن، وكلما نشأت اتجاهات جديدة حرصت هذه الطبقة عادة على إدماجها في عالمها الإيديولوجي.[٣]

ففي تحديد ماهية الشعر كان العرب في صدر الإسلام لا ينظرون إلى الشعر على أنه فن من الفنون، بل كانوا يرونه صناعة من الصناعات، ويظهر ذلك في قول عمر بن الخطاب "خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته"، وفي العصر العباسى عدّوه علما من العلوم. ويقول القاضى الجرجانى "الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه

---

[١] باقر، طاهر، *ملحمة جلجامش*، بغداد: دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦م ، ص: ٢٩

[٢] قبانى، نزار، *الشعر قنديل أخضر*، بيروت: منشورات نزار قبانى، ٢٠٠٠م، ص: ٤٣

[٣] رامان، سلدن، *النظرية الأدبية المعاصرة*، القاهرة: دار قباء، ١٩٩٨م، ص: ٤٣

الطبع والرواية و الذكاء، ثم تكون الدربة مادة من أسبابه"[٤]. وقد افتتح ابن رشيق كتاب العمدة بباب في فضل الشعر، وفيه فضل العرب على سائر الأمم لنبوغها وإعرابها في لسانها، واللسان أفضل ما في الإنسان، ودليل عقله وقلبه، ثم ذكر أن كلام العرب نوعان: منظوم ومنثور، ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، ورديئة، وإذا اتفقت الطبقتان وتساوتا في القدر والقيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الفضل للشعر؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة[٥] كما يقول. وفي عصرنا يبكر العارفون بالشعر أن يدرج ضمن الصناعات كالنسيج أو النجارة مثلا، ويرون فيه فنا يسمو على الصنعة والمهارة الحرفية. ويقول إدموند ولسن "الشعر فن أكثر بدائية وأشدّ همجية من النثر"[٦]ويقول نبيل راغب "الشعر في حقيقته لا يمكن أن يكون نوعا من الصنعة؛ لأن هذا يعنى أن الشاعر يجب أن يحصل على نوع من التخصص الحرفي الذى ينشد نفس المهارة التى يتميز بها الصانع الذي يدرك كل أبعاد صنعته عن طريق خبرته الشخصية وكنتيجة لمشاركته في تجارب الآخرين الذين تتلمذ على أيديهم. ولكن المهارة الحرفية التى يحققها لا يمكن أن تجعل منه فنانا، لأن الحرفي يُصنع في حين أن الفنان يُولَد[٧].

وحدّ الشعر الصحيح لا نجده في هذين التعريفين الأخيرين وأمثالهما من التعريفات التى لا تكفي في تبيين ماهية هذا الفن وتمييزه عن بقية الفنون، وإنما نجد تحديدا أجود وأفضل في بعض التعريفات الأخرى عند الشعراء والأدباء كقول صلاح عبد الصبور "الشعر فن اكتشاف الجانب الجمالي والوجداني في الحياة، والتعبير عنه بالكلمات المموسقة[٨]. وقول أحمد هيكل "الشعر ليس الكلام الموزون المقفى كما يقال أحيانا؛ وإنما هو كل تجربة إنسانية مصوغة صياغة فنية كلامية مموسقة" وقول إدجار ألن بو "الشعر شكل وصور قوية تحمل مادة خفيفة، وقوته في إيحائه كنغمات التأليف الموسقي، ولا شأن للشعر بالخير والحق، ولكن

---

[٤] عبده، عبد العزيز قلقيلة، *النقد الأدبي عند القاضي الجرجانى*، القاهرة: مكتبة أنجلو المصرية، ١٩٧٦م، ص: ٥٧

[٥] *العمدة*، جـ١، ص: ٢٩

[٦] *نفس المرجع*، ص: ٤٧٥

[٧] *النقد الفني*، ص: ٢٣

[٨] عبد الصبور، صلاح، *قراءة جديدة لشعرنا القديم*، القاهرة: دار الكب العربي، ١٩٦٨م، ص: ١١

بالجمال وحده[٩] وقول محمد غنيمي هلال "الشعر في معناه الحديث تأمل نفسى، تمر فيه التجربة من خلال النفس، ويبعث في قارئه- كما يثير في مؤلفه- عواطف ومشاعر وأفكارا ذاتية في جوهرها، ويتخذ الشاعر ذاته محورا لها، لا يعتمد على الحقائق الموضوعية مجردة من عواطفه، وإنما يعدّ ذاته هو معيارا لها. فإذا تناول العوالم الخارجية، أو نظر إلى بيئته نظرة شكوى أو تصويب، فإن هذا العالم ، وما فيه ومن فيه، يتحولون لدى الشاعر إلى حالة نفسية[١٠]. وقول سي- دى لويس "الطابع السامي للكلمات والتناسق الواعي والتشكيلية النادرة والمنطق المنغم هي السمات التى نتعرف بها على الشعر[١١] .

وتعريف لويس الأخير، وإن جمع أبرز عناصر الشعر من المفردات المنتقاة، والترتيب المنظم، والتصور النادر، والموسيقا المطربة، لا يحدّد الشعر تحديدا دقيقا وإن كان، مع ذلك، قريبا قربا ما. أما التعريف الذى نحبذه في تعريف الشعر فهو قول عز الدين إسماعيل "الشعر هو الامتداد المستمر لفرحة الإنسان الغامرة، هو استكشاف دائم للوجود عن طريق الكلمة. ومن ثم كان الشعر هو الوسيلة الوحيدة لغنى اللغة وغنى الحياة على السواء[١٢] فهذا التعريف البديع لا يحدد شكله ومضمونه، كما يربط هذا الفن بالعاطفة، ويصله بالإنسان من ناحية، وبالحياة من ناحية أخرى، ويرى فيه- لا استكشافا دائما للوجود فحسب- بل لعالم الكلمة. وفضلا عن ذلك كله، يرى الشعر وسيلة وحيدة لغنى الحياة وغنى اللغة. وهذا الجانب الأخير أهم ما يميِّز هذا التعريف عن غيره من التعريفات الأخرى. ولهذا السبب نأخذ به، ونستند إليه في هذا البحث عن توظيف الشعر العربي في تدريس اللغة العربية للدارسين من غير العرب على وجه الخصوص.

---

[٩] *الأدب المقارن*، ص: ٣٠٦

[١٠] *نفس المصدر*، ص:٤٩٠

[١١] لويس، ذى- دى، *الصورة الشعرية*، ترجمة أحمد نصيف الجنابى، الكويت: دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م، ص: ٣١

[١٢] إسماعيل، عز الدين، *الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية*، القاهرة دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م، ص: ١٧٤

٢- التعريف بابن رشيق: (حياته ونشأته)

هو أبو علي الحسن بن علي بن رشيق المسيلي القيرواني[١٣].وهو أيضا، الحسن بن رشيق الإفريقي المعروف بالقيرواني من أهل مدينة من مدن إفريقية تعرف بالمحمدية وأبوه رشيق مملوك رومي لرجل من أهل المحمدية[١٤] من الأزد[١٥]. ولد بالمسَيلة[١٦] (بالمغرب) وتسمى بالمحمدية[١٧]، سنة ٣٩٠-٤٦٣هـ/ ١٠٠٠-١٠٧١م[١٨]. وقيل ولد بالمهدية[١٩]. ولكن معظم الذين ترجموا له رجَحوا القول الأول، ومالوا إلى تأكيد ولادته سنة ٣٩٠هـ، وليس سنة ٣٨٦ أو ٣٧٠ هو كما زعم بعضهم[٢٠].

وقد مكث في المسيلة حتى السادسة عشرة من عمره بعد أن علَّمه أبوه صنعته الصياغة. وكان أبوه على أرجح الروايات روميا من موالي الأزد فنسب إليهم. وقرأ ابن رشيق القرآن والشعر وبعض علوم عصره في مدارس وكتاتيب المحمدية، وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم، ولم يقنع بما لديه في المحمدية من مصادر أدبية يمكنها أن تروي ظمأه وتشفي غلته، وتعلم الصياغة من أبيه وهو صغير، فجاء بشعر ونقد فيه ألق الذهب وبريقه. ولما رغب في

---

[١٣] ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ج٨، ص ١١١-١١٢، الطبعة الأخيرة. وقد نقل ياقوت عن ابن رشيق ترجمته لنفسه في كتابه *الأنموذج* حين قال : "صاحب الكتاب هو حسن ابن رشيق مولى من موالي الأزد، ولد بالمحمدية سنة تسعين وثلاثمائة، وتأدب بها يسيرا، وقدم إلى الحضر سنة ست وأربعمائة..." وانظر: *وفيات الأعيان* لابن خلكان ج٢، تحقيق: إحسان عباس، ص٨٥-٨٦.

[١٤] المحمدية : مدينة بنواحي الزاب من أرض المغرب، والمحمدية أيضا: من أعمال برقة من ناحية الإسكندرية. (*معجم البلدان*: ج٥ ص ٦٤.

[١٥] عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي* ، ج٤، ص ٥٥٢؛ القفطي، *إنباه الرواة علي أنباه النحاة*، جـ ١، ص ٢٧٧.

[١٦] المسيلة: مدينة بالمغرب تسمى المحمدية، اختطها أبو القاسم محمد ابن المهدي في سنة ٣١٥هـ وهو يومئذ ولي عهد أبيه. (معجم البلدان:٥/ ص: ١٣٠).

[١٧] بشير خلدون، *الحركة النقدية علي أيام ابن رشيق المسيلي*، وكتاب *النهشلى القيرواني*، المنجى الكعبى، *وكتاب البلاط الأدبي* للمعز بن باديس، عبده قلقيلة، وفيها المزيد من البحث *في الحركة العلمية والبلاغية والنقدية عند المغاربة حتى عصر ابن رشيق.*

[١٨] نفس المصدر ، ص: ٥٥٢-٥٥٣

[١٩] المهدية : مدينة بالمغرب بنيت على جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند، والقيروان في جنوبها، بناها المهدي أحمد بن إسماعيل الثاني سنة ٣٠٣هـ..(معجم البلدان: ٥/٢٣٠). ومن الذين زعموا أن ابن رشيق ولد في المهدية ابن خلكان في (وفيات الأعيان:٢/ ص٨٥) وابن العماد في (شذرات الذهب :٣/ ص: ٢٩٨).

[٢٠] ذكر عبد العزيز مخلوف في كتابه (ابن رشيق الناقد والشاعر ص: ٤٢) نقلا عن *بساط العقيق*، لحسن عبد الوهاب أنه ولد سنة ٣٨٦هـ، وعن *إنباء الرواة*، للقفطي أنه ولد سنة ٣٨٠هـ.

التزيد من الأدب، وتاقت نفسه إلى ملاقاة أهل العلم والفن، رحل إلى القيروان سنة ٤٠٦هـ، وكان عمره إذ ذاك ستة عشر عاما[٢١]، وكانت القيروان حاضرة العلم والأدب في عصره. فمدح ملكها المعز بن باديس (ت٤٥٣هـ/١٠٦١م). وأمضى أربعين سنة ما بين قصره وحلقات العلم في المسجد، فعُرِفَ بالقَيرَواني.

٣- الشعر عند ابن رشيق

يقول ابن رشيق في الحد العلمي والعروض للشعر: الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية[٢٢].

وقال في الحد الفني للشعر:...والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر، فإن وقع فيه شيء منهما فبقدر، ولا يجب أن يجعلا نصب العين، فيكونا متكئا واستراحة، وإنما الشعر ما أطرب، وهزَّ النفوس، وحرَّك الطباع، فهذا هو باب الشعر الذي وُضع له، وبُنِي عليه، لا ما سواه[٢٣] .

ويعلل في موضع آخر تسمية الشاعر بهذا الاسم؛ فيقول: وإنما سمِّي الشاعر شاعرا، لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير[٢٤].

إن ابن رشيق الشاعر والناقد لم يقف في مفهومه للشعر عند حدود ضيِّقة، مكتفيا بالشكل وحده دون المضمون، أو بالمضمون دون الشكل، وإنما قرَّر حدَّه للشعر بوعي وثقافة، وعمق الفهم وأصالته، لأنه يرى في الشعر فنا واحدا متكاملا بعناصره ومقوماته

---

[٢١] القفطي، *إنباه الرواة على أنباه النحاة*، ج١، الطبعة الأولى، ص: ٢٩٨-٢٩٩

[٢٢] *العمدة*، جـ١، ص: ١١٩

[٢٣] *نفس المصدر*، ص: ١٢٨

[٢٤] *نفس المصدر، ص: ١١٦*

جميعا، إنه بهذه العناصر والمقومات كلَّ لا يتجزأ، لا يقوم إلا بها مجتمعة، ولا يستطيع أن يؤدي بعضها وظيفته الفنية والشعرية بمعزل عن بعضها الآخر.

لقد حدَّ ابن رشيق الشعر من زاوية الشكل والمضمون معا، فحدَّد عناصر شكله وأجزاءها بالوزن والقافية والمعنى واللفظ، وهو ما مرَّ بحدِّه العلمي والعروضي. وحدَّد معالم مضمونه وأبعاده بتلك الخصائص الذاتية والمطالب والمعطيات الفنية، وذلك ما قرّره بعبارتيه في الحد الفني، المتضمنتين التعريف بطبيعة الشعر والشاعر، ومهمة كل منهما في المعطيات الفنية والشعورية؛ ولذلك يرى بشير خلدون أن ابن رشيق، وإن اتفق مع القدماء في تحديد ماهية الشعر من حيث الشكل، فإنه كان أبعد نظرة وأكثر تعمقا وفهما لمدلول الألفاظ والمعاني، وطبيعة العلاقة بينهما، ويضيف خلدون بأن ابن رشيق قد استطاع بما يملكه من بعد في النظرة، ومن علم وفقه وحسٍّ فنِّي أن يجمع بين عُنْصُرَي الشكل والمضمون في حدِّ للشعر، عنصر الشكل المتمثِّل فى الموسيقى، وعنصر المضمون المتمثِّل في المعاني والأخيلة والعواطف.. ويتابع حديثه مؤكدا سَبْق ابن رشيق في ذلك للنقاد العرب والغربيين، يقول: فإذا أخذنا طرفي المعادلة، وقلنا :إن الشعر هو موسيقى وخيال وعاطفة، أدركنا ما كان يهدف إليه ابن رشيق من تعريفه للشعر، وهي نظرية سبق بها النقاد العرب وحتى الغربيين أنفسهم، الذين كانوا ينادون ولا زالوا ينادون بها حتى اليوم، ذلك أن ابن رشيق كان شاعرا فنَّانا قبل أن يكون ناقدا، يستعمل ذوقه كأديب وحسَّه كفنان، وعقله كمثقف، ومن هنا كانت نظرته إلى الشعر نظرة متكاملة، بل هي نظرة ناقد متذوق يدرك عناصر الجمال ويعرف أسراره وخفاياه..[٢٥]

ويرى أن الحلقة في حدِّ ابن رشيق لم تكتمل بعد، فثَّمة طرف نادر فيها قد نأى، ولا بد من التفتيش عنه وضمِّه إلى حده حتى يكتمل حدا علميا وفنيا ناضجا وجامعا مانعا، وطرف هذه الحلقة هو تلك العبارة التي صدَّرتُ بها مطلع الحديث عن حدِّ الشعر، تحت مصطلح الحدِّ الفني للشعر، عنيت قوله: "والفلسفة وجرُّ الأخبار باب آخر غير الشعر..وإنما الشعر قد أطرب.."

[٢٥] *الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي*، ص: ١٣٤-١٣٦

وابن رشيق شاعر مجرِّب، وناقد حصيف عرف الشعر بإحساس الشاعر الفنان، وبصيرة الناقد الحاذق، وهو أبعد ما يكون عن التخليط في مفهومه، ولا يمكن أن يكون مفهوم الشعر عنده بهذا المفهوم الذي يدخل فيه قاعدة نحوية أو فقهية كما يقول الشايب: كيف، وقد عاب الشعراء النحويين بكثرة وجود التقديم والتأخير في أشعارهم، التي دخلوا فيها ميدان الشعر الفني ومضمار التنافس مع الشعراء الفحول. وقد تقدم في مبحث النظم قوله: ورأيت من علماء بلدنا من لا يحكم للشاعر بالتقدم، ولا يقضي له بالعلم، إلا أن يكون في شعره التقديم والتأخير، وأنا أستثقل ذلك من جهة ما قدمت، وأكثر ما تجده في أشعار النحويين[٢٦] .

٤- ظاهرة التكسب بالشعر

ومما يتصل بالحديث عن فن الشعر قضية خطيرة، ذات منحى اجتماعي، أعني قضية التكسب بالشعر، وهي خطيرة لما لها من صلة وثيقة بالجانب الفني للشعر. أما أنها ذات منحى اجتماعي، فلارتباطها بحياة الشاعر وظروفه المعاشية الخاصة، ولما لها من صلة بحياة الناس وأخلاقياتهم.

وقضية التكسب بالشعر قضية قديمة قدم الشعر العربي، وقد احترفها الكثير من الشعراء عبر العصور، كما أن هذه القضية قد شغلت بال النقاد العرب في القديم والحديث.

وفي هذا المنطلق يتضح أن ابن رشيق كان في موقفه من التكسب بالشعر أقرب إلى الأنفة منه، لانسجامه مع ما توحي به أواخر عنونته لهذه القضية، وقدَّمت شواهدي على ذلك من أقواله وأحاديثه في ذلك، لكنه بدأ يتراخى في موقفه هذا شيئا فشيئا حتى تراجع وتناقض صراحة، ولعل بداية هذا التراخي ما أوحى به — وإن كان إيحاء غير مباشر- استشهاده بقول عمر بن الخطاب المتقدم في زهير، ثم قوله بعد عن الحطيئة: إنه قد ألحف حتى انحطَّت همته في الشعر ومقته وذلَّ أهله، حتى حُرم السائل وعُدِمَ المسؤول، إلا أنه استثنى من ذلك:

---

[٢٦] *العمدة*، جـ١، ص: ٢٦١

إلا بقايا من أناس بِهِمُ إلى سبيل المكرمات يُهتدى

ألم يقدم ابن رشيق أبوابا في منافع الشعر ومضاره، ومن قضى له الشعر ومن قضى عليه، وفي شفاعات الشعراء وتحريضهم ..أم تراه هنا يغالط نفسه ؟ ونجد ابن رشيق يعود بعد ذلك، فيروي قولهم في التفضيل بين الخطيب والشاعر الذي كان في المنزلة الأسنى، حتى انحط لما صار شعره بلغة إلى لقمة، ثم يستثني من هؤلاء الشعراء من وقَّر نفسه، وعرف قدرها، حتى قبض وهو نقيُّ العرض مصون الوجه، ما لم يكن به اضطرار تحل به الميتة —كما يقول– فأما من وجد البلغة والكفاف، فلا حاجة به إلى السؤال بالشعر[٢٧].

ولكنه رجع وتدرك حين قال بعد: والشعراء في قبولها مال الملوك أعذر من المتورعين وأصحاب الفتيا، ثم تدرَّك أكثر، بل تناقض صراحة، حين قال بعد: وعلى كل حال، فإن الأخذ من الملوك كما فعل النابغة، ومن الرؤساء الجلة كما فعل زهير سهل وخفيف ، ولن يعد هذا التدارك والتناقض الصريح، كما لن يقدم في موقفه أو يؤخر عودته مرة ثانية إلى الحطيئة ليحط من قدره، ويشنع بهمته الساقطة؛ لأنه لم يتورع في سؤاله بشعره عن صغير أو كبير[٢٨].

وقد عرض ابن خلدون للحديث عن القيمة الاجتماعية للشعر، وتطرق لقضية التكسب بالشعر، وقد أدرك بن خلدون تناقض ابن رشيق وتراجعه في موقفه من هذه القضية، فبينا يعترف ابن رشيق بأن التكسب طريق لزعزعة المكانة الاجتماعية للشعر، والحط من قدره والنيل من سمعته وكرامته، ويأخذ النابغة الذبياني نموذجا لذلك، إذا به يتراجع عن موقفه ويتصدى للدفاع عنه، لأنه ما مدح إلا ملكا جبارا تخضع له الرقاب، ومن هنا– كما يقول ابن رشيق– فإن من صنع الشعر فصاحة ولسنا، وافتخارا بنفسه وحسبه، ولم يصنعه رغبة ولا رهبة، ولا مدحا ولا هجاء، فلا نقص عليه في ذلك، بل هو زيادة في أدبه..[٢٩]

---

[٢٧] *العمدة*، جـ١، ص: ٨٢–٨٣

[٢٨] *العمدة*، جـ١، ص: ٨٣–٨٤

[٢٩] انظر: *الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي*، ص: ١١٧–١١٨. والعمدة، جـ١، ص: ٤٠–٤١

وبهذا يظهر لنا تناقض ابن رشيق في هذه القضية، وتراجعه عن موقفه منها واضحا جليا، فقد تبينه خلدون كما تبيَّناه وأوضحناه سابقا بشيء من التفصيل. وإن كان خلدون قد لاحظ تراجع ابن رشيق عن موقفه من هذه القضية من خلال حديث ابن رشيق في موضع آخر، غير باب التكسب بالشعر، على حين أن تناقض ابن رشيق وتراجعه عن موقفه في ذات الباب الخاص بهذه القضية أشد صراحة ووضوحا كما مر.

والحق أن قضية التكسب الشعري قضية مهمة – كما قلت – لما لها من صلة بالتراث الشعري وتحديد قيمته ومساره الفني . وإن كنت لا أومن باختفاء هذه الظاهرة من ساحة الشعر في العصر الحديث.

وفي صميم هذا، أن مسار التكسب بالشعر في هذا العصر قد اتسعت دائرته، وتشعَّبت اتجاهاته ومقاصده، فاتخذت دلالته أشكالا متعددة؛ فلم يَعُدْ هناك التكسب بالشعرلأجل المال وحده. ونحن لا ننكر أن الإعلام بكافة أجهزته ووسائله قد احتل مكانة الشعر في ذلك أو كاد، وأخذ مهمته ووظيفته في الدعاية والتكسب، إلا أن الشعر لا يزال موجودا في الساحة.

وكقول درويش الجندي في قضية التكسب بالشعر– أنه كلام جيد– بل إن شعر المديح والهجاء الذي يقال في سوق البيع والشراء، وعلى أساس المنفعة الشخصية ليس من الأدب الرفيع الكريم، وكذلك كان مديح الحطيئة وهجاؤه بوجه عام. أما شعر الحطيئة الجدير بالقدير، فهو ذلك الذي قاله لإرضاء حاسته الفنية، وهو معظم شعره الوصفي. لقد دل هذا الشعر على أن الحطيئة كان فنانا ممتازا، وأنه كان شاعرا محقًّا.. يجيد تصوير البداوة التي امتزج بها لحما ودما.. ذلك هو شعر الحطيئة الخالد، لا شعر المديح والهجاء الذي قاله في دائرة الاحتراف، والذي أهدره الاستجداء، كما أهدر كل شعر سار في هذا الاتجاه على مر العصور، حتى اختفت هذه الوصمة أخيرا من الشعر العربي والحمد لله[٣٠].

[٣٠] درويش الجندي، *الحطيئة البدوي المحترف*، الطبعة الأولى، ص: ٢٢٥

ويضيف إلى هذا ويقول: وما أظن الشاعر المحترف يستطيع — إن وجد- أن يعيش في المجتمع العربي، كما كان يعيش بالأمس، ونحن في عصر لا عيشة فيه للمتعطل المتبطل. والأرستقراطية الطبقية والنظام الإقطاعي- اللذان استشرى في ظلهما الاحتراف- قد حملا أمتعتهما وارتحلا إلى غير رجعة عن وطننا العربي، وعما قريب تنعدم في الوطن العربي كله أمثال هذه الآفات التي أصابت حياتنا الاجتماعية والفنية في الماضي بالأمراض الجسام[٣١].

٥- ابن رشيق شاعرا

ومن العوامل التي ساعدت كثيرا، وكان لها كبير الأثر في تكوين شخصيته البلاغية والنقدية، كونه شاعرا، مهتما بالشعر؛ فقراءة الشعر وحفظه وروايته تقف في مقدمة الوسائل والأسباب التي عدها علماء النقد من لوازم ثقافة الناقد الأدبي، وابن رشيق قرأ الشعر وحفظه ووعاه ورواه مع كل ما يتصل به من أقوال وأخبار وحكايات ونوادر، مكثرا من ذلك كله، بل إنه محبٌّ للشعر، مولع به، صامد للدفاع عنه لا يكاد يوصف، حتى إنه ليختلق الشُّبه، ويثير القضايا حوله، ثم ينبري للرد عليها ودحضها، فإن قيل في الشعر إنه سبب التكلف، وأخذ الأعراض وما أشبه ذلك؛ لم يلحقه من ذلك إلا ما يلحق المنثور[٣٢].

وقد أقام في العمدة بابين في فضل الشعر وفي الرد على من يكره الشعر[٣٣]حشد فيهما من الأقوال والردود والشواهد ما يشهد بصدق نزعته إلى الشعر وولائه له، وقدره إياه حق قدره. ولا عجب، فالشعر عنده : أخو الأدب، وتجارة العرب... وأبقى من المال، وأنفس ذخائر الرجال[٣٤].

ومن فضائل الشعر التى أوردها:

---

[٣١] *نفس المصدر*، ص: ٢٢٦

[٣٢] *العمدة*، جـ١، ص: ٢٦

[٣٣] *المصدر السابق*، جـ١، ص: ١٩-٣٢

[٣٤] *العمدة*، جـ ١، ص: ٤٣

أن الشاعر يخاطب الملك باسمه، وينسبه إلي أُمِّه، ويخاطبه بالكاف كما يخاطبه أقل السوقة؛ فلا ينكر ذلك عليه، بل يراه أوكد في المدح وأعظم اشتهارا للممدوح، كل ذلك حرص على الشعر، ورغبة فيه، ولبقائه على مر الدهور واختلاف العصور....[٣٥].

أ- طبيعة شعره

وأما عن طبيعة شعره وخصائصه الفنية، كان صاحبنا بحيث مرّ من إبداع المعاني واختراع الأساليب وثقوب الذهن وجودة القريحة، وليس من الحائمين حول جزالة التراكيب، وفخامة المباني، وفصاحة الألفاظ فحسب.. فليس من الممكن أن نرى في شعره قعقعة ولا طحنا، أو معني مسروقا، بل نجده وافر النصيب من الإبداعات والإبتكارات والمعاني الدقيقة والأفكار اللطيفة والأساليب المتينة والمباني الرصينة[٣٦].

وعن بديهته وعفو خاطره ، فكم له من فيض اليد وعفو الساعة من غير تروٍّ أو تلبث ولو فواق بكيَّة...[٣٧]، ويضيف: بأن جلَّ ما عثر عليه من شعره إنما هو من هذا الباب، أما طوال قصائده فلم يصلنا منها إلا النزر اليسير[٣٨] . ويشيد بشعره في غرض الرثاء خاصة.

وأما شعره في الرثاء، فإن نونيته في خراب القيروان لا يضاهيها إلا نونية صالح بن شريف الرندي المذكورة في *القلائد ونفح الطيب*، وهي معروفة، وسينية ابن الأبَّار الكاتب البلنسي صاحب التكملة لكتاب الصلة، التى أنشدها بحضرة أبي زكريا ابن أبي حفص صاحب تونس مستنجدا لمسلمي أندلس على نصاراها، والتي أولها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن الطريق إلى منجاتها درسا

ونونية شمس الدين الواعظ الكوفي في زوال بغداد ودمارها...ومطلعها:

إن لم تُقَرِّح أَدمُعِي أجفاني من بَعدِ بُعدِكم فما أجفاني [٣٩]

---

[٣٥] *العمدة*، جـ١، ص: ٢٢

[٣٦] الميمني، *ابن رشيق*، ص: ٦٠

[٣٧] *نفس المصدر*، ص: ٦٢

[٣٨] *نفس المصدر والصفحة*

[٣٩] انظر *المصدر السابق*، ص: ٦٢-٦٣

إن الشعر الحقيق هو ما نفث فيه قائله من روحه ونفسه، وأعطاه من حسه وشعوره حتى يصبح جزءا من كيانه الشخصي، لا يجوز بحال أن ينفصل عنه كلحمه ودمه وسائر أعضاء جسده، يصور أحاسيسه ومشاعره وحياته الخاصة، وتأثراته الذاتية، وعلاقاته، وأسباب حياته، ومجتمعه وبيئته، وآراءه و اتجاهاته...إلى غير ذلك من مظاهر حياته الخاصة والعامة.

وفي شعره الذي بين أيدينا– وهو البقية الباقية منه– ما يعطي النظر فيه صورة تكاد تكون مكتملة عن حياته وشخصيته في جميع مظاهرها ومظاهر الحياة من حوله، فما بالك لو حفظ الزمان كل شعره.

ب– نماذج من شعره

قد جمع أكثر شعر ابن رشيق بعد وفاته في ديوان، ولكن كثيرا من هذا الديوان قد ضاع – مع ما ضاع من آثاره – يقول ابن خلكان أثناء ترجمته لابن يعيش: وكان الشيخ موفق الدين المذكور كثيرا ما ينشد منسوبا إلى أبي الحسن علي ابن رشيق المقدم ذكره، ثم كشفت ديوانه، فلم أجد هذه الأبيات فيه[٤٠].

وقال الميمني : ومنه يعلم أن الديوان ليس فيه جميع شعره[٤١].

ومع ذلك فقد ضاع هذا الديوان الناقص، ولم يبق منه إلا أقله، مما أنشده صاحبه في أحد كتابيه اللذين بين أيدينا، "العمدة" و"قراضة الذهب في نقد أشعار العرب" ، أو ما جاء في كتب الأدب والتراجم.

قال في مدح المعز:

لدن الرماح لما يسقي أسنتها من مهجة القيل أو من ثغرة البطل
لوأثمرت من دم الأعداء سمرقنا لأورقت عنده سمرالقنا الذبل
إذا تواجه في أولى كتائبه لم تفرق العين بين السهل والجبل
فالجيش ينفض حوليه أسنته نفض العقاب جناحيه من البلل

[٤٠] ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، جـ٦، ت. محمد محي الدين عبد الحميد، ط١ ص: ٥٠

[٤١] الميمني، *ابن رشيق*، ص: ٨٢

يأتي الأمورَ على رفق وفي دعة عجلان كالفلك الدوار في مهل[٤٢]

قال في حرفة الأدب:

أشقى لعقلك أن تكون أديبا أو أن يرى فيك الورى تهذيبا
ما دمت مستويا ففعلك كله عوج وإن أخطأت كنت مُصيبا
كالنقش ليس يصحُّ معنى ختمه حتى يكون بناؤه مقلوبا [٤٣]

وفي **ختام** حديثنا نقول: قد رأينا في هذا البحث نبذة عن حياة أديب الأدباء ابن رشيق القيرواني، وعرفنا اعتزازه بشخصيته واحترامه لعلمه، وعرضنا لأهمِّ كتاب له (العمدة) تأصّلت فيها فكرة نظرية الشعر عنده و فكرة نقد الشعر العربي بعد أن كانت مبعثرة في ثنايا الكتب السابقة. ورأينا ارتباط الشعر وقضية التكسب بالشعر عنده بنظرية النقد الأدبي الذي شرحناه باستفاضة ودللنا على صدقها بأمثلة من عيون الشعر العربي وعرفنا الشعر من خلال ذلك بما عرفنا.

[٤٢] *ديوان ابن رشيق*، ص:١٥٢، وهي من القصيدة التي نال بها رضا المعز وحظوته، ودخل بسببها في خدمته بديوانه
[٤٣] *المصدر السابق*، ص: ٣٧

المراجع والمصادر

- ابن خلكان . *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. تحقيق. إحسان عباس.م./٨. بيروت، دار صادر، ١٩٧٢م.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيروانى. *العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده*. ط١.ت. عبد الحميد محمد محي الدين. القاهرة: دار الطلائع للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م.
- إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.
- باقر، طاهر، ملحمة جلجامش، بغداد: دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦م .
- بشير، خلدون. *الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١م.
- درويش، الجندي. *الحطيئة البدوي المحترف*.ط١. مصر، مكتبة نهضة، ١٩٦٢م.
- رامان، سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، القاهرة: دار قباء، ١٩٩٨م.
- شوقى، ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٣م.
- عبد الصبور، صلاح، *قراءة جديدة لشعرنا القديم*، القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٨م.
- عبده، عبد العزيز قلقيلة، النقد الأدبي عند القاضي الجرجانى، القاهرة: مكتبة أنجلو المصرية، ١٩٧٦م.
- عمر، فروخ. *تاريخ الأدب العربي* . ج٤. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤م
- قبانى، نزار، الشعر قنديل أخضر، بيروت: منشورات نزار قبانى، ٢٠٠٠م.
- القفطي. *إنباه الرواة على أنباه النحاة*. ج١. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الأولى. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠ م.
- لويس، ذى- دى، الصورة الشعرية، ترجمة أحمد نصيف الجنابى، الكويت: دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م.
- ياقوت، الحموى. *معجم البلدان* . ج ٦. مصر: مطبعة السعادة، ١٩٥٦م.